

جماليات المعجم الشعري في المتن الهذلي

د. سعيد عكاشة
كلية الآداب واللغات والفنون
جامعة سيدي بلعباس

المعجم الشعري المفهوم والوظيفة:

ليس المعجم الشعري مجرد كلمات تتردد في قصائد الشاعر معبرة عن إحساسه الشعري، أو عن حالات ومواقف ورؤية، بل إنه يتوحد والمحيط اليومي للشاعر وتجربته حين يرسم سيمياء الكلمة الزاخرة بالحياة فتشكل أساساً في تكوينه الشعري.

ومعروف أن المعجم الشعري في هذا البحث هو جملة العناصر اللغوية والفنية والثقافية التي حصلها الباحث. وغاية المعجم هي الوقوف على مادة قابلة للدرس ضمن معطيات القراءة. ولما كانت فكرة المعجم الشعري وسيلة للدراسة النقدية وجب تحديد العناصر التي ستكون مجالاً للبحث، وهي عناصر أساسها الاختيار والعدول والتوظيف الخاص الذي يضم وسائل عديدة كال تكرار والاستناد إلى مفاتيح ورموز خاصة ونحو ذلك.

وإذا كان الشعر بنية لغوية ومجموعة من العناصر التي تؤلف بينها علاقات، فإن لكل عنصر من تلك العناصر خصوصية أو خصوصيات تميزه عن غيره، فإن التجربة الشعرية الجاهلية كغيرها من التجارب الشعرية لها تيمات الخاصة التي تميزها كروية جماعية، شفوية . ولعل ميل هذه التجربة إلى الألفاظ المثيرة التي تحمل رموزاً ومؤثرات لغوية، كألفاظ من بيئة الصحراء متنوعة (الحيوان، الماء، الجبال، الأدوات على اختلافها)، وألفاظ من بيئة النفس (القلق، الخوف، الفخر، الفرج الحزن...)، هو عين ما يشكل المعجم الشعري ويثريه بأنواع الدلالة الحقيقية والمجازية والثقافية، ذلك لأن المعجم الشعري نسيج بنية القصيدة ومستودع رموزها ((ومثابة اللحم للشدى يتأسس عليها البناء وتبرز فيها التزيينات))⁽¹⁾. وتتعاقد فيها الدلالات الحقيقية والدلالات المجازية .

إن لكل كلمة من المعجم الشعري معنى وروحاً ولوناً ووقفاً. ولكن قيمة هذا الكلمة أو تلك فيما تضيفه على سياق الجملة من حيوية وحركة. فالشاعر المبدع لا يصرّف ألفاظاً، وإنما يستخدم معجمه الشعري الذي يجعل سحر الألفاظ ونشوتها وتألقها وحرارتها من مفردات ناصعة جديدة غير مستهلكة تحمل معانيها المجازية المؤثرة، ومن خلال هذا المعجم يستطيع الباحث أو الناقد أن يلتمس خصوصية الملامح من تجربة الشاعر الذاتية والجماعية.

ومعلوم أن كلمات المعنى هي التي تحتل المكانة الأولى على المستوى المعجمي للقصيدة. أما كلمات العلاقة أو البنية أو الربط، فأهميتها تتجلى أساساً على مستوى التركيب، إذ هي التي تحدد الوحدات المعجمية

داخل العبارة. وإذا كانت الكلمة الشعرية مقتطفة من جسد اللغة، فمن الطبيعي أن نقارنها بلغة التواصل ليتبين الخلاف بينها وتبرز أوجه المفارقة، ذلك أن اللغة الشعرية انطلاقاً من كونها تتأسس من لغة التواصل إلا أنها مع ذلك تأخذ أشكالاً متباينة لدرجة لا نستطيع أن نفهم الكثير منها بسبب ما يحدث لها من تغيرات. وفي سياق هذه الفكرة يرى "لوتمان" ((أنه رغم كل الأهمية التي يكتسبها كل مستوى موضح في النص الفني في تشكيل البنية الكلية للعمل، فإن الكلمة تبقى الوحدة الأساس للبناء الفني اللغوي، فكل الطبقات البنيوية ما تحت الكلمة (التنظيم على مستوى أجزاء الكلمة)، وما فوق الكلمة (التنظيم على مستوى المتواليات)، لا تكسب دلالتها إلا من خلال علاقاتها بالمستوى المشكل من قبل الكلمات))⁽²⁾، وإن ذلك قد تكون مثلاً لكلمة حب دلالات في سياقات معينة وفي سياقات أخرى قد ترادف الموت، وفي طائفة ثالثة قد ترادف الليل والنهار والحياة والموت، غير أن هذه الكلمات نفسها حتى وهي تتمتع بمعناها الخاص في البنية الشعرية لا تفقد دلالاتها المعجمية.

إن معجم الشاعر مستمد من منجم اللغة، وكل كلمة فيه تجر وراءها تاريخاً مديداً، يعول الشاعر على بعضه ويخفي عنه البعض الآخر، ولكن هذا الخنفي لا يتلاشى إطلاقاً، بل يظل كالنار الكامنة خلف الرماد لا تلبث أن تتوهج إذا وجدت من يحركها وينفض الرماد عنها، كذلك الكلمة الشعرية تظل حبلى بكل شحناتها الدلالية يستقبلها المتلقي حسب معجمه الذي يختلف عن معجم الشاعر، فيسقط على الألفاظ دلالات ربما لم تخطر إطلاقاتاً على بال الشاعر أثناء إبداعه للنص، وبهذا تتنوع الدلالات وتتضاعف ويكتسب الشعر قياً جديدة على يد المتلقي، تختلف هذه القيم من متلقٍ لآخر، بل تختلف لدى المتلقي نفسه من لحظة لأخرى، وبهذا تصبح الكلمة الشعرية علامة حرة ذات أبعاد وإيجاعات وتداعيات لا صلة لها بالحيد والموضوعية، كما هو الشأن للغة العلم مثلاً. فالكلمة الشعرية إذن كما وصفها أحد الدارسين ((بذرة لزرع جديد بنيت في خيال القارئ))⁽³⁾. وراءها تجربة إنسانية غنية، ومعاناة كبيرة، ورحلة تأمل شاعر، لا تقف عند شيء محدد.

- المعجم الشعري الهذلي:

إن المدونة الشعرية الهذلية صادرة عن مجتمع لغوي واحد، وثروة لفظية نتاج ثقافة لا تزال تمثل تاريخاً نيراً، شكلت هذه المدونة مع أصحابها معجماً شعرياً حافلاً بالدلالات، والمفاهيم تتناسب وحاجاتهم وتجاربهم، ولقد كشفت هذه المدونة أيضاً عن الكثير من الظواهر

ليلة	37
صبح	22

هذه الكلمات كانت أكثر شيوعاً من غيرها في الديوان، نجدتها وردت كلها في سياق يشير إلى الحزن العميق والشعور بالاستسلام، والقبول بمصير مجهول غامض، والمتعمق في شعر الهذليين يجد أنهم استخدموا سيلاً من المفردات التي أخرجوها من دلالاتهم المعجمية وأضافوا عليها إيجاءات ودلالات مختلفة في سياق شعري خاص بهم.

يمكن أن نحصر بعضها في النماذج التالية:

الزَمَانُ الْمُفْضِلُ⁽⁹⁾.

فَلَمْ يَبْقِ الزَّمَانُ لَهَا أَهْلًا⁽¹⁰⁾.

أَرَى الْأَيَّامَ لَا تَبْقَى كَرِيماً⁽¹¹⁾.

بِاللَّهِ لَا يَأْمَنُ الْأَيَّامُ مُبْتَرَكٌ⁽¹²⁾.

فَلَا تَأْتِيَاثُ الدَّهْرِ يَرْجِعُنَّ هَالِكًا⁽¹³⁾.

هَلْ أَقْتَنَى حَدَثَانُ الدَّهْرِ مِنْ أُنْسٍ⁽¹⁴⁾.

والملاحظ في تشكيل الشاعر لمعجمه الشعري حول الزمن والموت والحياة، أنه لا يحيا خارج السياق، وإنما الوصول إلى الدلالة لا يتم إلا بتتبع شبكة العلاقات الاجتماعية والزمنية التي غدت النص وساهمت في نسيج بنيتها وتشكيل النظام اللغوي الذي يحدد قيمته الدلالية.

وما يزيد المعجم الشعري الهذلي ثراءً وتوعاً استخدام الشاعر الهذلي كلمات أخرى تصب في نفس الجدول السابق المعبر عن الحزن، فنجدته يستعمل كلمة الموت وما يشق منها وكذلك الحياة وما يتفرع عنها، انظر الجدول 1-2.

الكلمة	العدد	الكلمة	العدد
الموت	50	يحي	10
مات	15	حي	07
ميت	12	الحياة	06

كشفت هذه الكلمات الشاهدة على وجود هاتين العلاقتين في سياقات مختلفة، وإن طغت الأولى على الثانية، فقد عبرت بوضوح أن المجتمع الهذلي كان تتصارع في دواخله ثنائية الموت والحياة، وأن الهذلي في النهاية صار مقموع الإرادة وإن تظاهر بالقوة، أخذ يتلاشى ويندر أمام سطوة الموت، لا يملك من أمره إلا أن يستسلم، وفي ضوء هذه الضديت، نرى أن ((موقف الإنسان في مواجهة الموت، لم يكن موقف المتمرد في شتى الأحوال، سواء أكان هذا التمرد إيجابياً أم سلبياً فقد كان هناك موقف التسليم المطلق))⁽¹⁵⁾، وهذه رؤية لا شك أنها طبعت النفسية الهذلية وجعلت شعرها يكتسي هذه المسحة الحزينة، التي طغت على فن الرثاء، فأجادوا من خلاله في إظهار عواطفهم والتعبير عما يختلج في نفوسهم من حزن عميق، وكأبة صادقة، وشجن لا حدود له.

الاجتماعية والثقافية والنفسية في كلام الهذليين، كما أعطت لنا صورة واضحة عن البيئة الجغرافية التي تفاعلوا فيها وتحركوا في جنباتها، ولقد ظهرت تجليات هذه المعاني والدلالات في بنية المعجم الشعري اللغوي الذي يمكن أن نؤسس له من خلال صراع الإنسان مع الزمن، وصراعه مع الحيوان.

1- الزمن وثمائية الحياة والموت:

لقد كشفت هذه المدونة الشعرية الهذلية عن إحساس الشاعر الهذلي بالموت وسطوته التي تشكل ((حركة الغريزة المضادة لها وهي البقاء، فنجم عن ذلك إيمان واضح واعتقاد صريح بأن غاية الحياة هي الموت))⁽⁴⁾، أو كما يقول "هانز ساخس": ((إن جميع مظاهر الحياة هي نتيجة ذلك التجاذب الذي لا نهاية له بين غريزة الحياة بانتصاراتها الظاهرة، وغريزة الموت بقوتها الساكنة الخفية التي لا تقهر))⁽⁵⁾، وهذه الازدواجية، والتعرض في مكونات هذا الفضاء، الذي تبنيه المتناقضات، وتشيدته المتقابلات في تكامل وتفاعل فني بديع، توجهها هذه الذات التي تخرج الحياة من قلب أكثر العناصر تدميراً وجدياً وفناء. إن الحياة تبدو للشاعر الهذلي هشّة سريعة الانكسار، وهي نظرة تحكمها علاقته بالطبيعة، لأنها مجال بحثه وتجاربه، فالسيف والفرس والناقة والثور والمرأة والخمرة هي سلاحه لمقاومة الموت في افتتاح الطبيعة أمامه، ((الشاعر يعيش في جدل مع الطبيعة المتوجة كالرمل، ومع الدهر القاهر))⁽⁶⁾ الذي يتجلى في الصحراء المهلكة رمز الحياة والموت، فهو إذا في عيش رهيب مطارد من قبل الموت أبداً، في كل يوم له جولة وصولة، تنتهي باتزاع الأيام اتزاعاً، فتخف كفة الحياة، وتثقل كفة الموت، هذه المفارقة الأبدية تنقش كل يوم لتشكّل جذوة قلق لا يسكن في الذات، ذات الشاعر الشديدة الحساسية والشفافية العاجزة عن إيجاد توازن لصيغة هذا التناقض بين الإنسان بآماله ومخاوفه وأعماله وبين القدر المظلم العنيد، إنه الشعور بالعدم المطلق، كما عبر عنه المثقّب العبدى (الكامل):

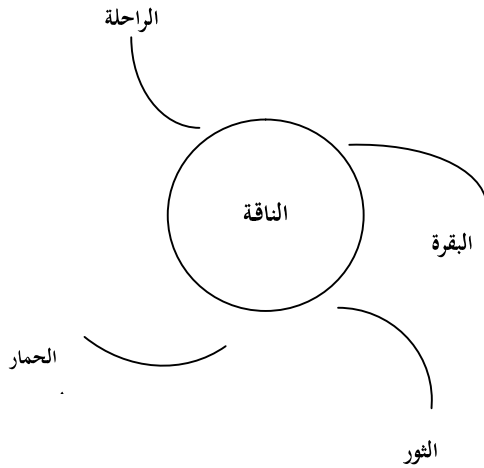
وَلَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ قَصْرِي حُفْرَةٌ غِبْرَاءُ يَحْمِلُنِي إِلَيْهَا شَرَجٌ
فَبِكَيْ بَنَاتِي شَجَرَهُنَّ وَرَوَّجَتِي وَالْأَقْرَبُونَ إِلَى قَمٍّ تَصْدَعُونَ⁽⁷⁾

ولأن الشاعر الهذلي كان مدركاً لهذه الحتمية اليقينية، وليس أدل على ذلك من احتفال معجمه الشعري على بنى لغوية وشعرية تشكل الحقل العلاماتي الذي يعبر عن قسوة الدهر وجبروته.

لقد استخدم الشاعر الهذلي في معجمه الشعري كلمات تشير إلى الزمان ومرادفاته نوضحه في الجدول التالي⁽⁸⁾

الكلمة	العدد
يوم	126
ليل	90
دهر	62
غداة	55

حولها التشبيهات، فتصل إلى بنية محكمة في الوصف في نوع من التشبيه القصصي⁽²¹⁾. فالناقة في النص الشعري تبتعد عن مفهوم المائدة أو المقايضة، وتنتقل من مستوى الواقع إلى مستوى الرمز، فتتلون، حسب الرؤى، وخط التجارب، فقد تأتي (حراباً) أو (حباباً)، أو (موتاً)، أو (حياة).



وما يلفت الانتباه في الشعر الهذلي غياب ناقة الرحلة التي نراها بكثرة في الشعر الجاهلي بعد وقوف الشعراء على الأطلال، وقد يكون السبب في ذلك أعمق ((فرحلة الشاعر الجاهلي كانت من أجل طلب الخلود))⁽²²⁾، وأبو ذؤيب وغيره من شعراء هذيل كانوا مستسلمين لمصيرهم بصريح القول أن الموت حق وأن الخلود محال، فالفناء لاحق بالإنسان والحيوان، وكل ذي حياة لاحق بالمرء ولو اعتلى الشمس، ومصيب الحيوان، ولو كان قوياً كثور الوحش وحمار الوحش والوعل القوي الذي يعتصم في القلال، والعقاب التي تتخذ وكرها في قمم الجبال (البسيط).

إن المطايا غداة الرِّيع تُعَبِّها رملٌ تَدُّ له أعناقها صَعْدُ⁽²³⁾

سُدْسًا وَبَزْلاً إِذَا مَا قَامَ رَاجِلاً تَحَصَّنَتْ بِشِبَا أَطْرَافُهُ عَرْدُ⁽²⁴⁾

إن المعجم الشعري للناقة لم يكن لينحنا هذا الزخم من العلامات والإيحاءات لولا أنه ارتبط بسياقات دلالية أخرى كشفت عن عمق الرؤية وصدق التجربة.

ولقد ازداد المعجم الشعري الهذلي شمولية وبعد نظر عندما ساهم العنصر الحيواني والمتمثل في الثور والحمار والوحشيين في إثراء التجربة، وتوسيع نطاق الدلالة، ويعتبر الثور والحمار علامتان فرعيتان ترتويان من الناحية الدلالية من علامة أكبر، هي الشعور بالأسى والحزن الدرامي الذي يلف التجربة الشعرية الهذلية. فحكاية الثور والحمار تنطلق من مبدأ رمزي مفاده أن الحقيقة البشرية باطنة مستترة وأن ما يبدو من مظاهر

وحتى يعمق الشاعر الهذلي من معجمه الشعري حول الموت والحياة ويوسع من مجاله نجد يستعمل كلمات تشارك في تصوير هذا الجانب الحزين، من مثل هذه السياقات:
إِنَّ الْمَنَائِمَا تُسَاقُ لِفَيْتَةٍ⁽¹⁶⁾ ج 848/2.
مَا تُخَطِّطُهُ الْخُتُوفُ⁽¹⁷⁾ ج 184/1 .
إِنَّ سِبَاغَ الْأَرْضِ هَالِكَةٌ وَالنَّاسُ⁽¹⁸⁾ ج 226/1.
هَلْ أَسُوءُ لَكَ فِي الرِّجَالِ صُرْعُوا⁽¹⁹⁾ ج 1082/3.

وقد يتسع المعجم الشعري أكثر ليضم ما من شأنه أن يوسع دائرة هذه الرؤية الهذلية نحو حقيقة الموت والحياة مثل: القتل، الفتك، الحرب، الطعن، الثأر، الغزو، الدم، وكأن الشاعر يحول المأساة الناتية إلى مأساة كونية وحقيقة مطلقة في الزمان والمكان، تكشف بالصورة الشعرية المترابكة، عن زيف المشاريع الحياتية، وعن حتمية أحكام الدهر وتصاريق القدر في شؤون العباد ومصير الكائنات، ويكفي الإنسان نبلا أن يصارع ويقاوم الاستسلام.

ب- معجم الحيوان وصراع الوجود:

إن علاقة الشاعر الجاهلي بما يحيط به من موجودات ليست علاقة سطحية تخلو من الشعرية والرؤية الناقبة، وإنما يكتيف الشاعر وجود هذه الظواهر ويحركها للدلالة على ما يرغب في أن تشحن به الكلمة الشاعرة في استدعاء هذا الموجود⁽²⁰⁾، ولعل الحيوان هو إحدى هذه الظواهر التي صارت منظومة اجتماعية وشعرية تحكم اختيارات الشاعر الهذلي، وتغذي مكوناته الشعرية والوجودية، وما يميز الهذلي ذلك الاقتتان بين الخيال والحيوان، فالحيوان ورصده وتتبع أحواله النفسية والجسدية والمكائنية أحد نتاجات الرؤية الهذلية التي أشبع بها قناعاته بحتمية الزوال، فغدا الحيواني معادلاً للذات المأزومة.

وانطلاقاً من هذا الاهتمام بالحيوان تشكل المعجم الشعري الهذلي فشغل حيزاً هاماً تجلّى في كثرة وتنوع الكلمات التي تشير إلى الحيوان خاصة تلك الحيوانات التي شكلت حقولاً دلالية بالاشتراك مع حقول أخرى مثل الناقة والثور والبقرة والوعل. . . والشاعر من خلال هذه الحيوانات أقام علاقات جدلية بين الأحياء، فالأحياء مجتمعة تحاول أن تثبت وجودها في الزمان والمكان، وهي تسعى أبداً لإحداث عملية البناء، ثم ما تلبث أن تصدم بعملية الهدم والقهر بإيعاز من الزمن الذي يسخر الأحياء فيقتل بعضها بعضاً في سلسلة متنامية من الأحداث والفواجع المأساوية.

وقد شكلت الناقة معجماً شعرياً مميزاً، فهي قد تجاوزت ذلك المعطى الخارجي، وتشكلت عند الشاعر الهذلي في علامات ذات دلالات عميقة وغامضة، جسدت زيادة على القوة والتأسك في الهيئة والمقاومة المستمرة في الفعل، صورة لذلك الحيوان البطل في التصدي لعواقب الحياة وصعوباتها، لأجل ذلك ((فهي تقترن بكل ما يوازها من الكائنات والموجودات في القوة والفعل عند هذا نجد أثناء ذكرها تهافت

(4)- بيتر شتاينكرون، لا تقتل نفسك، تر. نظمي راشد، القاهرة، دار الهلال، (د.ت) ص.10.

(5)- المرجع السابق، ص.7 و8.

(6)- أدونيس، مقدمة للشعر العربي، ص.13.

(7)- المتنب العبدى، الديوان، ص.205.

(8)- كريم زكي حسام الدين، التحليل الدلالي لإجراءاته ومناهجه، ص.72.

(9)- شرح أشعار الهذليين، 860/2.

(10)- المصدر نفسه، 959 /2.

(11)- نفسه، 1 /287.

(12)- شرح أشعار الهذليين، 1 /226.

(13)- المصدر نفسه، 918/2.

(14)- نفسه، 3 /1113.

(15)- عبد القادر زيدان، التمرد والغربة في الشعر الجاهلي، ص.160.

(16)- شرح أشعار الهذليين : ج2/848.

(17)- المصدر نفسه، 1 /184.

(18)- نفسه، 1 /226.

(19)- نفسه، 3 /1082.

(20)- ينظر: غالي سرحان القرشي، رحلة الذات في فضاء النص الشعري القديم، موضوعات نادي المدينة المنورة، ط.2000 ص.118.

(21)- اسطنبول ناصر، تداعي الوعي في الشعر الجاهلي، جامعة وهران، رسالة ماجستير، 1985، 1986 ص.321.

(22)- ينظر: نصرت عبد الرحمن، الصورة الفنية في الشعر الجاهلي، ص.134.

(23)- شرح أشعار الهذليين، 1 /530.

(24)- المصدر نفسه، 2 /925.

(25)- عفت الشرقاوي، دروس ونصوص في قضايا الأدب الجاهلي، بيروت، دار النهضة العربية، 1979، ص.287.

الواقع ما هو إلا تمويه وزيف وسراب وهذا ما جعل النص مشبعًا بالإيجاعات لا بالمعارف والمعلومات كما هو شأن النص الواقعي.

وهكذا فإن صورة الحمار والثور عند الشاعر الهذلي صار متصلا بالرتاء والموت واختلاف الأيام، وقتل الحمار والثور في العينية يمثل تحطيمًا للمثال والرؤية الجاهلية. حيث كان الشعراء يطلبون اللذة حبا في الحياة، أو يغرقون في طلب اللذة هربا من شقاء هذه الحياة، أو كما يرى عفت الشرقاوي في تفسيره لمذهب طرفة أنه ((مذهب يميل إلى اقتناص لذة الحياة خوفا من ضياعها ويأسا من دوامها، فعمل في تحقيق اللذة انتصار على الموت. . .))⁽²⁵⁾، ولأجل ذلك كان الثور الوحشي ينتصر على الكلاب الضاربة، والحمار الوحش ينتصر هاربا من القناص وأسهمه.

وفي سياق الموت والحياة يتداخل المعجم الشعري الهذلي للحيوان بعناصر وحقول دلالية أخرى ترتبط بعلاقات تلاؤمية تكشف قدرة الشاعر الهذلي على خلق المعاني والتلاعب بسنن اللغة. لقد وظف الشاعر عناصر مثل الفضاء بمختلف تغيراته (خصب، جذب)، والكلاب الضاربة (مسرعة هالكة)، حمر (رائعة، راحلة)، قناص متربص بالحيوان الدوائر، هذه مستويات ومعاني لا تتحدد بنفسها بل بالنظر إلى الكلمات الأخرى معها في السياق، لذا فإن الكلمات في النص تحيا باستخداماتها، ويبدو أن الشاعر الهذلي استثمر هذا المعجم الشعري في سياقات تفاعلت مع فكرة الموت والحياة اللتان تلحان على نفسه باستمرار.

د. سعيد عكاشة

الهوامش

(1)- محمد مفتاح، الشعر وتناغم الكون، التخيل الموسيقي المحبة، الدار البيضاء، المكتبة الأدبية، ط1، 2001، ص.128.

(2)- يوري لوتمان، بنية النص الفني، ص.243.

(3)- ينظر الخطيئة والتفكير، ص.16.